أصناف التراجمة في ديوان الإنشاء المملوكي

أ.د. سمير الدروبـــــي

جامعة مؤتة- قسم اللغة العربية

مقدمة

لقد خدم حركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء[1] في العصر المملوكي الممتد قرابة ثلاثمئة عام تقريباً عدد كبير من التراجمة من مختلف الطوائف والأجناس، ويمكن تصنيفهم إلى ما يأتي:

- **كتاب ديوان الإنشاء:**

أدى ديوان الإنشاء دوراً كبيراً وخطيراً في إدارة الدولة المملوكية وتسيير أمورها، وامتدت صلاحيات صاحبه المسمّى بكاتب السر أو صاحب الدواوين الشريفة أو كاتم السر إلى أكثر الجوانب أهمية في تصريف شؤون الحكم سواء أكانت مدنية أم دينية أم سياسية أم عسكرية أم اقتصادية.

فديوان الإنشاء ولا سيما كاتب سره مسؤول عن التعرف على أخبار الممالك المختلفة وعرضها على السلطان، وهو القائم بكتابة التعيينات لكبار موظفي الدولة من مدنيين وعسكريين، وهو الراسم لحدود صلاحياتهم في وصاياه التي ترفق بتقاليدهم أو تواقيعهم أو مناشيرهم.

وفوق ذلك، فإنه كان مسؤولاً عن نشاط جهاز البريد وتنظيمه تنظيماً دقيقاً براً وبحراً وجواً، وكذلك عرض ما يحصل عليه البريدية من أخبار[2]، أو يأتون به من رسائل على السلطان، بل إن صلاحياته تجاوزت الإدارة الداخلية إلى تنظيم العلاقات الدبلوماسية مع الدول الأخرى عن طريق مخاطباتهم وتلقي رسائلهم، واستقبال سفرائهم ، وتنظيم إقامتهم ومقابلتهم للسلطان[1] .

وبناء على ما ذكر من مهام الديوان وواجباته، فإن صاحبه يحتاج إلى عدد كبير من الكتاب المضطلعين بالعربية وغيرها من اللغات السائدة في ذلك الوقت،

---

1. انظر: الدروبي، "حركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء المملوكي"، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ع 62، 2002م، ص 11-73.

2 . انظر: الشيباني، رسالة رصف الفريد في وصف البريد: 6-7 (مقدمة المحقق: سمير الدروبي).

1 . انظر: العمري: التعريف بالمصطلح الشريف:155-158؛القلقشندي، صبح الأعشى:11/92-93.

ولذا فإننا نجد في مصادر ذلك العصر ما يشير بوضوح إلى أولئك الكتاب التراجمة الذين يحسنون العربية وغيرها من اللغات.

ولو وقفنا على العصر الأيوبي الذي كان العصر المملوكي امتداداً له لوجدنا كاتباً كبيراً يلي القاضي الفاضل أهمية في دولة صلاح الدين، وهو العماد الأصفهاني(ت597هـ/1200م) الذي ذكر لنا في ترجمته أنه كان ينشئ الكتب بالعجمية[1] .

وقبيل أفول نجم الإمارات الأيوبية وبداية الزحف المغولي إلى بلاد الشام نجد أن أمراء الأيوبيين بدمشق ومصر قد استخدموا في ديوان الإنشاء واحداً من الكتاب الأعاجم وهو المؤيد بن الموفق بن محمد الدّفترخوان الحنفي الذي قدم إلى دمشق في أيام الناصر صلاح الدين داوود (ت626هـ/1228م)، ثم باشر العمل في ديوان الإنشاء بمصر أيام نجم الدين أيوب الذي حكم بين سنتي 637-647هـ/ 1239-1249م، وكان المؤيد:"يكتب خطاً حسناً، وينظم وينثر بالعجمي والعربي، وكان قدومه في أيام الناصر صاحب الشام، فاستخدم في ديوان الإنشاء لأجل كتب التتار فإنها كانت في تلك الأيام ترد بعضها عجمي، فاستخدم لتعريبها وكتابة الأجوبة عنها"[2].

أما في العصر المملوكي الذي كان أكثرإيغالاً في العجمة؛ لغلبة العناصر المملوكية من تركية وجركسية ورومية ومغولية وفرنجية على الحكم، فإن الحاجة إلى المترجمين كانت أكثر إلحاحاً،وقد وضح لنا القلقشندي- مؤرخ ديوان الإنشاء وكاتب أضخم وأجمع دستور له- ذلك قائلاً: "فإن الشخص يميل إلى من يخاطبه بلسانه لا سيما إذا كان من غير جنسه، كما تميل نفوس ملوك الديار المصرية وأمرائها وجندها لمن يتكلم بالتركية: من العلماء والكُتاب ومن في معناهم على ما هو معلوم مشاهد"[3].

---

2 . الصفدي، الوافي بالوفيات:133/1.

2 .الصفدي، الوافي بالوفيات:ج20، ورقة160ظ-161و.

3 . القلقشندي، صبح الأعشى:166/1-167.

وقول القلقشندي الآنف الذكر يفسر لنا كثرة التراجمة في الديوان من ناحية، وإقبال بعض كتاب السر على تعلم اللغة التركية أو غيرها من اللغات لما ذلك من أهمية في إدارة شؤون الدولة، وخير مثال على ذلك علاء الدين علي بن أحمد بن الأثير (ت730/1329م) وهو من أبناء أشهر العائلات الكتابية في العصر المملوكي، وكان علاء الدين مقرباً من الناصر محمد بن قلاوون حيث عهد له بصحابة ديوان الإنشاء بالديار المصرية سنة 711هـ/1311م، واستمر في منصبه حتى وفاته، وبلغ من المكانة والعظمة في الدولة المملوكية مبلغاً كبيراً حتى أصبح يقلد أمراء المماليك في أثناء أدائه لعمله في الديوان، وكان كما صوره الصفدي: " يركب بستة عشر مملوكاً من الأتراك، فيهم من هو بعشرة آلاف درهم وأكثر، وكان أخيراً يقف هؤلاء المماليك في خدمته بالديوان سماطين، ولا يتكلم إلا بالتركي، ومماليكه يُعرّبون كلامه للناس..... وأصّل في الديوان كلماً كثيرة"[1] .

ولعل في قول الصفدي السالف" وأصّل في الديوان كلماً كثيرة" ما يدل على أن علاء الدين بن الأثير قد أدخل كثيراً من المصطلحات والألفاظ والرسوم السائدة في دواوين المغول والترك والفرس، في مكاتبات ديوان الإنشاء المملوكي وبخاصة إذا عرفنا أنه كان يقرّب الأدباء والحكماء الوافدين على دولة المماليك من بلاد العجم، مثل عبد اللطيف العجمي (ت 731هـ/1330م)الذي وصف بالفصاحة بالتركي والعجمي[3].

ومن كتاب السر المجيدين للغة التركية أبو بكر بن محمد بن محمد المعروف بابن مزهر (ت893هـ/1487م) الذي وصفه لنا عصريه السخاوي في أكثر من مصدر بأنه قد " جوّد اللسان الذي لا يستغنى عنه في مخاطبة الأتراك"[4] .

والعبارة السابقة موحية لنا بأنه لم يقتصر على التعلم فحسب، بل وصف بالتجويد للغة التركية والبراعة فيها، الأمر الذي يفسر لنا الألقاب التي أطلقت على كتاب السر مثل" لسان الممالك" و"لسان ملوك الأمصار"، والمعنى كما فسره القلقشندي بأنه " يتكلم بلسان ملوك الممالك"[1] .

---

2 . الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر:2/156-157.

3. انظر : المصدر السابق:2/117-118.

4 0 السخاوي، الذيل على رفع الإصر: 477؛الضوء اللامع:11/88.

1 . القلقشندي، صبح الأعشى: 6/68.

ويعدّ شيرزاد بن ممدود بن شيرزاد بن علي شرف الدين الرومي (ت707هـ/1307م) مثالاً على التراجمة والكتاب الذين عملوا في دواوين الإنشاء العربية وغير العربية، فقد كان والده كما ذكر ابن حجر من بعلبك، ثم تحول إلى دمشق، وسمع بها من ابن عبد الدايم وحدث عنه: "ثم سافر إلى الروم صحبة الطواشي صواب الأوحدي، فأقام نحو عشر سنين وولي بها الإنشاء، وترسل إلى الملوك، ثم توجه في البحر إلى مصر، وتقرر ترجماناً للدولة للكتب التي تردّ من بلاد العجم في سلطنة قطز إلى أن مات في ثاني المحرم سنة707/1307 بالقاهرة"[2] .

فالنص السالف يكشف لنا عن مصدر تعلم شيرزاد بن ممدود للغة الرومية(التركية)، وإن تعيينه ترجماناً في الديوان بني على خبرة سابقة تمثلت في خدمته في أكثر من ديوان من دواوين الإنشاء في إمارات الأتراك ببلاد الأناضول التي كانت تعرف آنذاك ببلاد الروم أو البلاد الرومية، مما يجعل من هذا الترجمان الكاتب خبيراً بأحوال تلك الإمارات حين الحاجة إلى مخاطبتهم من ديوان الإنشاء المملوكي.

وتمدنا المصادر بطائفة من أسماء الكتاب الذين عرفوا أكثر من لغة، وتكلموا بعدة ألسنة كمحمد بن شريف بن يوسف الزرعي المولود بدمشق، والمتوفى في سنة (711هـ/1311م)، الذي قال عنه المقريزي بأنه:" كان يكتب في التوقيع، وله معرفة بالإنشاء...ويعرف عدة لغات"[3] ، ووصف بأنه" تعانى الخط المنسوب، وسافر إلى بعلبك، وتعلم من ياقوت وغيره، وكان تام الشكل حسن البزّة، متأنقاً في أموره، يتكلم بعدة ألسن، واتصل بخدمة بيبرس الجاشنكير قبل السلطة، ثم أثابه الجاشنكير بإدخاله ديوان الإنشاء"[1] .

ويبدو أن دولة المماليك كانت جاذبة للكتاب والعلماء والحكماء، ومن هؤلاء الوافدين نظام الدين يحيى بن عبد الرحمن (ت761هـ/1359م) وكان

2 . ابن حجر، الدرر الكامنة:2/294-295؛ وانظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه:1/284.

3 . المقريزي، السلوك، ج2،ص113؛ وانظر: الصفدي، أعيان العصر:3/21.

1. الصفدي، أعيان العصر:3/21-22.

كاتباً مجوداً وموسيقاراً بارعاً، قدم إلى دولة المماليك، وكان مقرباً من أمرائهم، ثم طلب العودة إلى بغداد، حيث قام بكتابة مراسلات حكام بغداد إلى المماليك، يقول الصفدي :" وكان (كذا) الكتب ترد عن حكام بغداد إلى ديوان الإنشاء بخطه، وكان والده النور حكيماً، يطب ملوك المغل وغيرهم، وكان نظام الدين يكتب المنسوب، ويضع الكوفي والمغلي على أحسن ما يكون"[2].

ومن التراجمة الذين أسندت إليهم كتابة السر في دولة المماليك الجراكسة بدر الدين محمود بن عبدالله الكُلُستاني، وقد عُرف بالكُلُستاني لكثرة قراءته لكتاب الشاعر العجمي السعدي المسمى بكُلُستان التي تعني بالتركي حديقة الورد، وقد قدم من بغداد إلى دمشق، واتصل بنائبها الطنبغا الجوباني، ثم وفد على مصر فَولي تدريس الشيخونية والصرغتمشية، وقد نُعت بأنه:" يتكلم بالعربي والفارسي والتركي وهو لسانه"[3] .

أما سبب تعيينه كاتباً للسر فإنه بينما كان السلطان المملوكي متوجهاً إلى حلب في سنة 796هـ/1393م للقاء اللنك(تمرلنك أو تيمور لنك)ورد عليه "كتاب تمرلنك بعبارة تركية على منزلة الصالحية، فطلب من يكتب جوابه بالتركية، وذلك لعجز بدر الدين بن فضل الله كاتب السر الشريف، فقيل له عن بدر الدين محمود السرامي"[4] الذي قرأ الكتاب، وأجاد الإجابة عليه، فأمر السلطان برقوق أن يكون بصحبة الدوادار قَلَمْطاي، ثم توفى كاتب السر بدر الدين بن فضل الله العمري في السنة نفسها، فعين الكلستاني كاتباً للسر في الدولة المملوكية، واستمر الكلستاني كاتباً للسر حتى وفاته في سنة 801هـ/1398م [1] .

---

2. الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر: 3/321-322.

3. الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان:2/21.

4. المصدر السابق:2/23-24.

1 . انظر: ابن حجر، إنباء الغُمر بأنباء العمر:2/88-90؛ السخاوي، الضوء اللامع:10/136-137؛ ابن تغردي بردي، النجوم الزاهرة :14/175.

ويُعد إبراهيم بن عبد الرازق بن غراب القبطي (ت808هـ/1405م) من أشهر التراجمة في عصر المماليك الجراكسة، وأصله من أبناء الكتبة القبط بالاسكندرية ، وجدّه غراب هو أول من أسلم من آبائه، واتهم بأنه ممن دلّ الفرنج على عورات المسلمين بالإسكندرية عندما قاموا بغارتهم المشهورة عليها في سنة 767هـ/1365م. وقد تعلّم إبراهيم "لسان الترك حتى حذق فيه"، وتولّى عدة وظائف هامة في الدولة المملوكية أهمها: وظيفة ناظر الخاص التي يقوم صاحبها في التحدث فيما هو خاص بمال السلطان ووظيفته ناظر الجيش، وكاتب السر، إلا أنه ترفّع عن وظيفه كاتب السر لمكانته عند السلطان المملوكي الناصر ناصر الدين الدين فرج بن برقوق الذى حكم بن سنتي(801-808هـ/1398-1405م)[2] .

أما أكثر التراجمة جولاناً في الآفاق، وطوافاً في الأرض، فهو أحمد بن محمد المعروف بابن عربشاه(ت854هـ/1450م) الذي اقتاده تيمور لنك أسيراً من دمشق وهو فتى في الثالثة عشرة من عمره تقريباً، وذلك في سنة (803هـ/1400م)، فتعلم الفارسية والتركية وبرع فيهما، ودخل بلاد الخطا طلباً للعلم، وهو يفيض لنا في سيرته الذاتية في إجازته لتلميذه يوسف بن تغري بردي قائلاً:" واستفدت اللسان الفارسي والخط الموغولي وأتقنتهما، واجتمعت في بلاد المغل بالشيخ برهان الدين الأَنْدُكَاني والقاضي جلال الدين السِّيرامي، وأخذت عنهما، وقرأت النحو على مولانا حاجي تلميذ السيد الشريف.

ثم توجهنا إلى خوازم فأخذت عن مولانا نور الله. ومولانا أحمد الواعظ السرائي بن شمس الأئمة، وكان يقال له ملك الكلام فارسياً وتركياً وعربياً، ثم توجهنا إلى بلاد الدشت وسراي ...واجتمعت في قيريم أيضاً بمولانا محمود البلغاري، ومولانا محمد اللبِ ابي، وعبد المجيد الشاعر الأديب صاحب قصة يوسف المسماة بمؤنس العشاق بالتركي وهي من أطراف ما صنّف.

ثم قطعت بحر الروم إلى مملكة ابن عثمان فأقمت بها نحواً من عشر سنين، فترجمت للملك غياث الدين أبي الفتح محمد بن أبي يزيد بن مراد بن أدرخان بن عثمان رحمه الله تعالى كتاب " جامع الحكايات ولامع الروايات"

2. انظر: المقريزي، درر العقود الفريدة:1/101-114؛السخاوي، الضوء اللامع:1/65-67.

من الفارسي إلى التركي في نحو ست مجلدات، وتفسير الإمام أبي الليث السمرقندي وتعبير القادري بالتركي نظماً، ثم باشرت عنده الإنشاء، فكتبت عنه إلى ملوك الأطراف عربياً وفارسياً وتركياً"[1]

ويجعل ابن عربشاه وفاة السلطان ابن عثمان حدا فاصلاً لإقامته في بلاد الترك التي أقفل عنها متوجهاً إلى وطنه القديم الشام، فدخل حلب في سنة 824هـ/1421م، ثم تحول عنها بعد أربعة أشهر إلى دمشق ثم أدى الحج، وسافر في سنة840هـ/1436م إلى القاهرة واتصل بالسلطان جقمق، واتخذ من عاصمة المماليك دار إقامة عاكفاً على الترجمة والتأليف حتى وافته المنية في سنة 854هـ/1450م[2] .

ومما يدل على أهمية معرفة اللغات لكاتب السر أنه نعت بـ"لسان ملوك الأمصار" و"لسان الممالك" أي أنه يتكلم بلسان ملوك الممالك كما يقول القلقشندي[3] ، ويعضد ذلك أن واحداً من كتاب السر بالقاهرة ثم دمشق وهو شهاب الدين أحمد بن يحيي العمري (ت749هـ/1348م) قد أبدى ملاحظات لغوية عن اللغتين التركية والمغولية ربما دلت على معرفته بهاتين اللغتين[4].

وعلاوة على ذلك فإن معرفة اللغات الأعجمية لم تقتصر على كتاب ديوان الإنشاء، بل نجد أن بعضاً من الكَتبة في الدواوين الأخرى حذقوا اللغة التركية، فسليمان بن إبراهيم(ت744هـ/1343م) وصف بأنه:" يتكلم فصيحاً باللغة التركية"[1].

- **المهمندارية:**

---

1 . ابن تغري بردي، المنهل الصافي: 2/141-143.

2 . انظر: المصدر السابق: 2/141-144؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: القسم السادس (10-11)،ص104.

3 . القلقشندي، صبح الأعشى:6/68.

4 . انظر: العمري، مسالك الأبصار:3/ 57، 81، 97، 99.

1. ابن تغري بردي، المنهل الصافي:5/17.

وهم" جمع مَهمندار، وهو فارسي معرب وأصله مَهمن ومعناه الضيف، والثاني دار ومعناه ممسك الضيف"[2] كما يقول الخالدي العمري، أما السُّبكي فقد عرّف المَهْمَندار بأنه:"اسم لمن يقوم بأمور قُصّاد الملوك ورسلهم"[3] ، وأما القلقشندي فإنه جعل المهمندارية من وظائف أرباب السيوف، ويقوم صاحب هذه الوظيفة بتلقي الرسل الواردين وأمراء العُربان وغيرهم[4] .

ويكون المهمندار تابعاً لكاتم السر أي صاحب ديوان الإنشاء، ويشترط فيه أن يكون: "عاقلاً ذكياً يقظاً فطناً أميناً ناهضاً فصيحاً في اللغتين"[5].

ويبدو لنا أن مهمة المهمندار ومساعديه كانت على درجة كبيرة من الأهمية؛ لأنه أول رجال الدولة الذين يستقبلون القُصاد والرسل ويقومون بأمر ضيافتهم، ويتكلمون معهم بألسنتهم ولغاتهم، وينزلونهم في أماكن إقامتهم اللائقة بهم، ومن ثَمّ فإن المهمندار يترك الانطباعات الأولية في نفوس الرسل عن الدولة المضيفة لهم، ولذلك فإن السُّبكي في كتابه "معيد النعم" الذي يُعد من كتب الإصلاح السياسي والإداري في الدولة المملوكية اشتراط على المهمندار:" أن يعتمد مصلحة الإسلام، ويُرهب القُصاد، ويوهمهم قوة المسلمين وشدة بأسهم، وعظيم سطوتهم، واتفاق كلمتهم، وقيامهم في حَوزة الدين وذَبّهم عن حريم الملة الإسلامية وحفظ النظام، وأن يُنهي أمور القُصاد إلى الملك بمقدار ما يكون فيه المصلحة، ورُبّ من يتعين عليه المبادرة إلى إكرامه، ومن يتعين عليه الكف عن إعظامه، بحسب ما تقتضيه الحال[1].

2. الخالدي العمري، المقصد الرفيع المنشا: ورقة 103و.

3 . السُّبكي، معيد النعم ومبيد النقم:31.

4 . القلقشندي، صبح الأعشى:22/4.

5 . الخالدي العمري، المقصد الرفيع المنشا: ورقة 103و.

1. السبكي، معيد النعم ومبيد النقم:31-32.

ومن مهام المهمندار أن يتعرف على سبب مجيء الرسل وقصدهم من سفاراتهم، ويقوم بإبلاغ كاتب السر بذلك، ثم يقوم بإحضارهم بين يدي السلطان للاطلاع على رسالتهم وغرض قدومهم[2]، ثم هو ملزم" بعدم إقامتهم بعد تناول أجوبتهم اليوم الواحد"[3].

ويفهم مما أوردته المصادر بشأن المهمندار ومساعديه بأنهم يقومون بالترجمة الشفوية التي يقصد منها معرفة غايات القُصاد من زيارتهم لبلاط الدولة المملوكية، ثم تنظيم مراسيم إقامتهم واستقبالهم وسفرهم.

- **أمراء المماليك:**

يرجع المماليك في نشأة دولتهم إلى أيام الأيوبيين، وعلى وجه الخصوص أيام الصالح نجم الدين أيوب الذي حكم من (637-647هـ/1239-1249م)، فقد أكثر نجم الدين من استجلاب المماليك الأتراك وكون منهم فرقة في جيشه تعرف بالمماليك البحرية[4] الذين كانوا نواة الجيش المملوكي فيما بعد، ومعظم المماليك الأتراك من قبيلة القَبجاق وهي إحدى القبائل التركية التي تسكن منطقة آسيا الوسطى حول بحر قزوين[5].

وعلاوة على الجنس التركي فإن الجركس[1]هم العنصر الثاني في الجيش المملوكي إضافة إلى ما ضم إلى هذا الجيش من تتار[2]، وروم جاءوا من أصول تركية وأوروبية[3].

---

2. انظر: . De. Jean. Thenaud , Le Voyage D'Outremer (Paris, 1884), P. 180, 190-191.

3. الخالدي العمري، المقصد الرفيع المنشأ:103ظ.

4. ابن واصل، مفرج الكروب: 5/274-275، 278.

5. انظر: العيني، السيف المهند:19-20؛ عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك:101/1.

1. سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك:223.

2. ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر:105-106، 137، 138.

3. ابن إياس، بدائع الزهور:2- 304، 364، 416.

وبناء على ما تقدم فإن هؤلاء المماليك ينتمون إلى جنسيات متعددة ذات لغات مختلفة، نقلوها معهم إلى موطنهم الجديد الذي تم تعريبهم فيه.

وتمدنا كتب تراجم العصر المملوكي وتواريخه وحولياته بأسماء عدد كبير من المماليك ثنائيي اللغة، ولا غرو في ذلك فإن بعضهم جاء إلى دولة المماليك طلباً للحماية، وفراراً من تسلط التتار ووحشيتهم في التعامل مع الناس[4].

فأياز بن عبدالله الصالحي(ت687هـ/1288م)أحد حجاب الظاهر بيبرس كان واحداً من التراجمة الذين يثق بهم بيبرس ويعتمد عليهم، وقد أرسله بيبرس سفيراً إلى أبغا بن هولاكو في سنة 670هـ/1271م، وذكر ابن الفرات في ترجمته:" وترسل عنه إلى أبغا ملك التتار وإلى غيره... وكانت الملوك تعتمد عليه في المهمات الجليلة"[5].

ولا ويمكن أن يفهم من عبارة: "وترسل عنه" أنه كتب إليه بالعربية؛ لأن كبار الكتاب العرب في ديوان الإنشاء كانوا يضطلعون بذلك.

ويمكن الاستدلال من ترجمة أقطاي فارس الدين الصالحي المعروف بالمستعرب (ت672هـ/1273م)، وهو من كبار الأمراء في دولة الظاهر بيبرس، بأنه كان عارفاً باللسان الإفرنجي وذلك لقيامه بمهمة السفارة بين السلطان المنصور علي(حكم من سنة 655-657هـ/1257-1259م) وبين الفرنج وذلك عندما رأى منه المعز:"ذكاءً وفطنة ورأياً سديداً، فندبه إلى مواصلة الفرنج فسعى [بينهم] وبين الملك المعز إلى أن أصلح له الفرنج، وأطلق جماعة من أسر الفرنج بسفارته، وكذلك من المسلمين"[1].

4. انظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه :85/1؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار:22/2.

5. ابن الفرات، تاريخ:74:8؛ وانظر: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر:34.

1. ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر:112-113.

ومن هؤلاء الذين جمعوا بين العربية والمغولية قبجق المنصوري الذي كان نائباً للشام، وهو من الفرسان المعروفين بالبأس والشدة، حكى عنه صلاح الدين الصفدي قائلاً: " ويجيد الكلام والخط باللغة المغولية، وحكى لوالدي عن نفسه أنه كان كاتباً لحسن تقو أحد نوينات المغول، وأن أباه كان رأساً من رؤوس الكتابة بالمغولية، مجيداً في الترسل فيها، وقال له: مثل ما عندكم كلام جيد وكلام ردئ هكذا عندنا"[2].

ومن الأمراء التراجمة أوتامش الأشرفي[3](ت 737هـ/1336م)، ويُذكر في بعض المصادر بلفظة أيتمش[4]، وكان في الأصل مملوكاً للسلطان الأشراف صلاح خليل بن قلاوون (ت693هـ/1293م)، ثم ولاه الملك الناصر محمد بن قلاوون (ت741هـ/1340م) نيابة الكرك، وكان مقربا من الناصر الذي أرسله غير مرة سفيراً للقان بوسعيد ملك التتار الإلخانيين في العراق وفارس، ووصف بأنه: " يعرف بالمغلي لساناً وكتابه، ويدرب آداب المغل، ويحكم في بيت السلطان بالياسة واليسق الذي قرره جنكزخان، ويطالعها ويراجعها، ويعرف بيوت المغل وأنسابهم وأصولهم، ويستحضر تواريخهم ووقائعهم، وكان إذا جاء من تلك البلاد كتاب إلى السلطان بالمغلي يكتب هو الجواب عنه"[5].

وفي مقاله كاشفة للمستشريق ليتل Little يتبين لنا الدور الدبلوماسي الكبير الذي أداه هذا الترجمان في توطيد العلاقات، وحل الخلافات القائمة بين السلطان الناصر محمد، وبين ملك الإلخانيين بوسعيد، وذلك في ثلاث رحلات سفارية قام بها في السنوات: 722هـ/1322م، 726هـ/1325م، 728هـ/ 1327م، وذلك لما تمتع به

2. الصفدي، الوافي بالوفيات: 178/24.
3. الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر:209/1.
4. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة:453/1.
5. الصفدي ، أعيان العصر وأعوان النصر:209/1.

من معرفة تامة باللغة المغولية، وبما له من مؤهلات شخصية مكّنته من أداء هذه السفارات الناجحة[1].

ومن التراجمة الأمراء: الأمير ظهر بغا أو ظهير بغا المغلي أو طاير بغا (ت738هـ/1337م) وكان بُغا قد حضر إلى دولة المماليك في سنة (726هـ/1325م)، في عهد الناصرمحمد بن قلاوون الذي قرّب بغا وجعله أميراً، وكان يقرأ على السلطان كتب بوسعيد التي ترد بالمغلي ويكتب الأجوبة، وكان يفد عليه من أقاربه على مدى الأيام من عشرة إلى مائة فيبرهم، ويصلهم، فمنهم من يقيم بالقاهرة، ومنهم من يرجع[2].

ويبدو من المعلومات المتوافرة لدينا أن بعضاً من أمراء المماليك كان يعرف أكثر من لسان، فبلبان الرومي كان يترسل عن السلطان إلى أكثر من دولة[3].

والأمير منكلي بغا الصلاحي الحاجب كان يكتب خطاً حسناً ويتكلم بالعجمية والتركية الخالصة[4]، وأياز بن عبدالله كا ن يترسل عن السلطان إلى ملوك التتار وملوك الإفرنج[5] ، ومَنكلي بُغا الصلاحي الظاهري المعروف بالعجمي (ت836هـ/1432م)، أرسل سفيراً إلى تيمورلنك خلال حكم الناصر فرج، وكان فقهياً، :" ويذاكر بالشعر باللغات الثلاث: العربية والعجمية والتركية، ويكتب الخط المنسوب" [1] ، فإرساله سفيراً وإنشاده للشعر باللغات: العربية والعجمية والتركية، دليل على تمكن هذا الأمير من هذه اللغات.

---

1. Donald p. Little, " Notes On Aitamis a Mongol Mamluk" , Die Islamichen Welt Zwischen Mittelalter und Neuzeit , Feutschrift fur , Hans Robert Roemer zum 65. Geburtstag, ed . Ulrich Haarmann & Peter Bachmann, (Beirutre Texte und Studien, 22). Wiesbaden : Franz Steiner Verlage, 1979,PP.387-401.

2. انظر: الصفدي، أعيان العصر:28/2؛ ابن حجر، الدرر الكامنة:337/2؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي 293/2.

3. الصفدي، الوافي بالوفيات:391/24.

4. العيني، عقد الجمان:438.

5. ابن تغري بردي، المنهل الصافي:121/3–122.

1. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة:179/15.

وعندما أصدر السلطان قانصوه الغوري بتاريخ 915هـ/1509م مرسوماً يمنح فيه امتيازات تجارية لطائفة الفرنتيين (الفلورنسيين)، ذكر فيه أحد كبار المترجمين في نهاية العصر المملوك وهو الأمير تغري بردي الترجمان، ونص الوثيقة :".... وبرز أمرنا الشريف بكتب أمان شريف للقنصل والتجار وما سأل فيه حضرة الملك وجهز ذلك إليه، ورسمنا للمجلس العالي الأميري الكبري المجاهدي المؤيدي الذخري النصري الأوحدي الأكملي الأعزي الأحضي السيفي عمدة الملوك والسلاطين تغري بردي أحد أعيان الأمراء العشرات بالديار المصرية، والترجمان بأبوابنا الشريفة–أدام الله سعده– بأن يكتب إلى حضرة الملك بما فيه إطابة خواطر التجار بما سيعلم حضرة الملك بأمر تجاره وجماعته بالحضور إلى ثغر الإسكندرية المحروس..."[2].

ويبدو أن تغري بردي الترجمان واظب على القيام بواجباته ومهامه الكبيرة والخطيرة[3] إلى أن قبض عليه السلطان في شهر محرم من سنة 917هـ/1511م،متهماً إياه بمخاطبة ملوك الإفرنج واطلاعهم على بعض أسرار الدولة، فبقيت وظيفة ترجمان الإفرنج خالية قرابة ثلاث سنوات، ثم عين أحد المماليك ترجماناً ويدعى يونس الترجمان الذي كان نائباً لتغري بردي في محرم من سنة 920هـ/1514م [4].

ومما يدل على كثرة المماليك الذين يجيدون اللغات الأعجمية وبخاصة التركية والمُغْليّة ما ذكر القلقشندي عن ترجمة كتب بعض القانات من ملوك الشرق:" يتولى ترجمتها من يُوثَق به من أخصاء الدولة: من الأمراء أو الخاصكية ونحوهم، ممن يعرف ذلك اللسان، ثم يقرأ ترجمته على السلطان، ويعتمد ما يأمر به في جوابه ليكتب به"[1].

---

2. M. Amari, I diplomi Arabi del R Archivio Fiorention. (Firenze, 1863), P. 224.

3. انظر: . Thenaud, Le Voyage Doutremer P. XLVI

4. انظر: ابن إياس، بدائع الزهور:4/210، 361–262.

1. القلقشندي، صبح الأعشى:6/216.

ويروي لنا اليوسفي خبراً عن أحد مماليك الأمير برصبغا أو برسبغا الحاجب الناصري (ت742هـ/1341م) عند حديثه عن قتل أحد أمراء المغول في حمى الدولة المملوكية في سنة 734هـ/1332م، فيقول:" وبلغني من بعض مماليك برصبغا، كان يعرف بلسان المغل، أنهم لما وقع بينهم وبين برصبغا المفاوضة قال لهم الرجل أمير ركب العراق بلسان المغل..."[2].

- **العلماء والأدباء:**

أدي العلماء دوراً مهماً إبان العصر المملوكي، وقد تجلى ذلك الدور في تعليم الناس، وفي الوقوف في وجه الظلم، وفي شحذ همم الأمة ونفوسها؛ لتقف صخرة قوية في وجه ما يتهددها من أخطار عظيمة تجلت في سيول التتار الجارفة التي لا تنقطع، وفي غارات الصلبيين وحملاتهم المتواصلة على السواحل الشامية والمصرية، وسواحل الجزيرة العربية في أخريات أيام الدولة المملوكية.

وكانت الترجمة من اللغات الأعجمية إلى العربية، أو من العربية إلى اللغات الأعجمية مما اضطلع به نفر من علماء ذلك العصر سواء أكانوا من الفقهاء أم المتصوفة أم المؤرخين أم الحكماء والفلاسفة، مقدمين خبراتهم العلمية والمعرفية سائغة لديوان الإنشاء المركزي في القاهرة، أو للدواوين الفرعية التي نسجت على غراره في النيابات الأخرى كدمشق وحلب وطرابلس وصفد وغزّة والكرك.

ومن الفقهاء المترجمين: فخر الدين محمد بن مصطفى بن زكريا بن خوجا المولود بدورك ببلاد الروم سنة 631هـ/1233م، والمتوفى سنة 713هـ/1313م، ويروي صلاح الدين الصفدي عن شيخه أبي حيان الأندلسي (ت725هـ/1324م) سيرة هذا الترجمان، قائلاً:" كان شيخاً فاضلاً عنده أدب وله نظم ونثر وقد نظم " القدوري في الفقه " نظماً فصيحاً سهلاً جامعاً، ونظم قصيدة في النحو تضمنّت أكثر " الحاجبية "، وفخر الدين هذا كتبنا عنه لسان الترك

2. اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر:175.

ولسان الفرس، وكان عالماً باللسانين يعرفهما إفراداً وتركيباً أعانه على ذلك مشاركته في علم العربية، وله قصائد كثيرة منها " قصيدة في قواعد لسان الترك " ونظم كثير في غير فن. ودرس بالحسامية الفقه على مذهب أبي حنيفة، وكان قديماً قد تولّى الحسبة بغزة وكان بارع الخط... وقد أدّب بقلعة الجبل بعض أولاد الملوك"[1]. وما رواه لنا الصفدي عن أبي حيان الأندلسي في غاية الأهمية؛ لأنه يكشف لنا عن المصدر الأساسي الذي استقى منه أبو حيان مادته في معجمه الموسوم بـ " الإدراك إلى لسان الأتراك " من ناحية، ويكشف لنا عن شخصية عالم مترجم مختص باللغات: العربية والفارسية والتركية من ناحية أخرى.

ومن الأدباء التراجمة: عبد اللطيف بن خليفة العجمي (ت731هـ/1330م)، وكان أخوه كحال غازان ملك التتار، هاجر إلى الدولة المملوكة، إلا أننا لم نستطع تحديد تاريخ وفوده عليها، وصف بأنه "كان أديباً فاضلاً لبيباً عاقلاً على ذهنه غوامض من العربية... يترسل بغير سجع... وخطة قوى إلى الغاية من تعليق العجم... يتحدث بالتركي العجمي فصيحاً"[2].

وكان العجمي متصلاً بالسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون وبغيره من كبار الأمراء، وجعل له راتب في جملة المماليك السلطانية، وعرف بأنه كان خبيراً بأخلاق الملوك ومخاطباتهم وسياساتهم، وعارفاً بأخبار وقائع المغول، ومستحضراً لكلام الحكماء، وقد قربّه القاضي علاء الدين بن الأثير كاتب السر وكانت له به خصوصية[1]، ويبدو أن السبب في ذلك هو الانتفاع بمعرفته للغتين التركية والفارسية.

أما المترجمون من المتصوفة، فإن علي بن محمود بن حمد القونوي (ت749هـ/1348م) خير من يمثل هذا النوع من المترجمين، فقد كان القونوي

1. الصفدي، الوافي بالوفيات:31/5؛ وانظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة:28/5؛ السيوطي، بغية الوعاة:246/1-247.

2. الصفدي، أعيان العصر:117/2-118.

1. الصفدي، المصدر السابق:117/2-119.

مدرساً بدمشق في المدرسة القلجية التي أقرى الطلبة فيها منهاج البيضاوي، والحاوي الصغير، ومختصر ابن الحاجب، ثم تولى مشيخة الشيوخ فيها بدلاً من قاضي القضاه شرف الدين المالكي بحكم وفاته، وفوق هذا فإنه عُرف بورعه وتديّنه وتواضعه[2].

أما صلته ودوره في ديوان الإنشاء، فإن إقامته بدمشق قد جعلت منه قريباً من ديوان إنشائها الذي كان يلي في أهميته ديوان القاهرة، ولذلك فإن الصفدي يصفه مرة بأنه:" كان يُعرّب الكتب الواردة على ديوان الإنشاء باللغة العجمية"[3] وينعته مرة أخرى بأنه: " كان يُعرّب لديوان الإنشاء الكتب التي ترد عليه بالعجمية من البلاد الشرقية"[4].

ومعلوم لدينا بأن الصفدي قد ألّف كتابه "الوافي بالوفيات" الذي هو مصدرنا في قوله الأول قبل كتابه "أعيان العصر" الذي اشتمل على عبارته الثانية، الأمر الذي يوحى بأن الصفدي أراد بالزيادة الواردة في قوله: الثاني إزالة ما اعترى عبارته الأولى من لبس وغموض في قوله: " اللغة العجمية " التي لا يدري ما هي، هل هي اللغة الفارسية أو المغولية.

ومن العلماء المترجمين محمود بن عبد الرحمن الأصبهاني (ت749هـ/1348م)، الذي كان بارعاً في علوم الأوائل والعقليات والشرعيات، وقد ورد على دمشق سنة725هـ/1324م بعد أدائه لفريضة الحج وزيارته للقدس الشريف، وسمع منه ابن تيمية، وقال في حقه:" اسكتوا حتى يسمع كلام هذا الفاضل الذي ما دخل البلاد مثله"[1]، ثم طلبه السلطان محمد بن قلاوون في سنة 732هـ/1331م وقرّبه، وكان: " ما يعرف اللغة التركية فقعد به ذلك، إلا أنه راج باللغة العجمية عند الأمير سيف الدين قوصون"[2].

---

2. الصفدي، المصدر السابق:257/2.
3. الصفدي، الوافي بالوفيات:189/22.
4. الصفدي، أعيان العصر:257/2.
1. الصفدي، أعيان العصر:262/3.
2. المصدر السابق:263/3.

ويورد لنا بدر الدين العيني في حولياته خبراً بخصوص أحد المتصوفة العجم وهو نصر الله بن عبد الله بن إسماعيل العجمي (ت833هـ/1429م) الذي طاف بلاداً كثيرة، ثم قدم إلى مصر، فعرض السلطان عليه كتابه السر ولكنه أبى ذلك[3] .

وخبر العيني المتقدم يدل بجلاء على أن معرفة هذا المتصوف للغة أعجمية أو أكثر هي التي أهلته لمنصب خطير كمنصب كاتب السر من جانب، وتدل على تراجع في مصطلح ديوان الإنشاء الذي يقصر هذه الوظيفة على بلغاء الكتاب وكبرائهم من العرب من جانب آخر.

أما الفلاسفة والحكماء الذين نمت الترجمة وترعرعت في رحابهم، ونهضوا بأعبائها، وخاضوا عبابها في العصر العباسي كحنين بن إسحاق وحبيش الأعسم وقسطا بن لوقا وغيرهم فإن العناية باللغات الأعجمية كانت من شأنهم وديدنهم[4].

وخير من يمثل الحكماء التراجمة في العصر المملوكي محمد بن إبراهيم المعروف بابن الأكفاني(ت749هـ/1348م) الذي ولد بسنجار ونشأ بها، ثم هاجر إلى مصر وتوفى فيها، وقد برع في الطب والهندسة، والحساب والمنطق والفلسفة، علاوة على الأدب والتاريخ، وحفظ أشعار العرب من جاهليين ومولدين ومحدثين ومتأخرين[5] .

ويبدو أن نشأته وذكاءه، وسعة دائرة اهتماماته، قد مكّنته من اكتساب أكثر من لغة وبخاصة المغولية والفارسية، ويتضح ذلك من خلال رواية فتح الدين بن سيد الناس اليعمري (ت734هـ/1333م) المهاجر الأندلسي إلى مصر، والتي أوردها الصفدي:"... وأما أحوال الشرق ومتجدّدات التتار في بلادهم في أوقاتها فكأنما كانت القُصاد تجيء إليه، والملطفات تتلى عليه بحيث أنني كنت أسمع منه ما لم أطلع عليه من الديوان"[1].

- الأسرى:

---

3. العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان(تحقيق: عبد الرزاق الطنطاوي القرموط):385-387.
4. انظر: سمير الدروبي:"منهجية المسلمين في الترجمة في العصر العباسي"، مجلة ترجمان، جامعة عبد المالك السعدي، ع1م ص51-93، 1999م.
5. الصفدي، الوافي بالوفيات: 2/25-26.
1. المصدر السابق:2/26.

لم تهدأ الحرب بين المسلمين والفرنجة حتى بعد طردهم على أيدي المماليك من الساحل الشامي في نهاية القرن السابع الهجري، بل استمرت غاراتهم على الشواطئ المصرية والشامية، وغزاهم المماليك في مواقعهم الجديدة كقبرص ورودس وغيرها، وفي أثناء ذلك وقع بأيدي المسلمين أسرى كثيرون. ومن هذا النوع من التراجمة الأسرى: ابن تغري بردي الذي روى قصة أسره واعتناقه الإسلام لبدروا مارتيرد انجلاريا سفير الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا في سنة 907هـ/1501م.

فيذكر لنا انجلاريا: أنه عندما وصل إلى القاهرة استقبله الترجمان، فسأل انجلاريا ابن تغري بردي الترجمان عن اسمه، والبلد التي أتى منها، وكيف صار إلى ما هو عليه؟ فقال له الترجمان:" إنه ابن رجل من بلنسية يسمى لويس دبرات Luis de Prate، وإنه ولد في قرية مجاورة لبلنسية تسمى مونبلانش Monblanch ، وعندما شب عمل بحاراً، فأرادت المقادير أن تلقى سفينته، عاصفة هوجاء على مقربة من الساحل المصري، وتحطمت السفينة وألقت الأمواج بركابها على الشاطئ، فأخذه الناس فيما أخذوه إلى السلطان؛ لأن عُرف البلاد يقضي بأن حطام السفن الغارقة أو الجانحة وكل ما فيها يعتبر ملكاً للسلطان ويساق إليه، إلا إذا كانت السفينة لتجار معروفين، أو ثبت أنها لتجار يحملون صكّ أمان.

وقد قال هذا الرجل: إنهم سجنوه وعذبوه ثلاث سنوات حتى اضطر إلى اعتناق الإسلام بلسانه خلاصاً لنفسه، وأما قلبه فظل مسيحياً مخلصاً. وقد ختنوه على كبر، واختار هو من الأسماء الإسلامية –في رأية–تغري بردي"[1] .

1. حسين مؤنس،"سفارة بدرو مارتيرد أنجلاريا سفير الملكين الكاثوليكيين إلى السلطان الغوري (ديسمبر 1501–فبراير 1502)"، ضمن: أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس–إبريل 1969: 1/460–461.

ومن الأسرى الذين عملوا تراجمة بلبان الجنوي الذي يمكننا أن نعرف عنه وعن دوره في الترجمة من خلال ما ذكره لنا أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت749هـ/1348م) الذي كان نائباً لوالده رئيس ديوان الإنشاء في أيام الناصر محمد بن قلاوون، ولكن أحمد العمري اختلف مع السلطان فأودع السجن، ويذكر أنه تعرّف في السجن على بلبان الجنوي الذي أمدّه بأوثق المعلومات عن الإمارات التركية الإسلامية في بلاد الأناضول، وعن الممالك الرومية (اليونانية) مثل القسطنطينية وطرابزون.

وحكى لنا العمري قصة الترجمان بلبان الجنوي قائلاً: "بلبان الجنوي عتيق الأمير الكبير بهادر المعزي، وهو ممن له الخبرة التامة بما يحكيه، وهو الذي أفاد كيفية تصوير هذه البلاد، واسم هذا بلبان في بلاده دومانوكين دوريّا بن بادا دوريّا، وهو من بيت حكم في جنوة، اتفق أنه جمعت بيني وبينه المقادير في الاعتقال وعنه أخذت ما قال"[2].

والناظر في مسالك الأبصار يجد أن هذا الترجمان قد أمدّ العمري بمعلومات وافرة وقيمة تتعلق بـ: حدود وعملة واقتصاد وسكان وجيوش وأمراء وجغرافية جميع الإمارات التركية الواقعة في آسيا الصغرى والتي كانت تربطها علاقات ودية مع المماليك، ومن هذه الإمارات التي عرفها بلبان وتحدث عنها: كصطمونية وقاويا وبرسا واكيرا ونيف ومغنيسيا ومرمرا وبركي وفوكه، وانطاليا وقراصار وأرمناك وكرمينان وطنغزلو وتوزا وعميدلي[3].

وفوق ذلك فإن هذا الترجمان المدعو ببلبان الجنوي كان المصدر الأساسي الذي استقى منه العمري مادة رسالته الموسومة بـ" ممالك عباد الصليب" وهي رسالة طريفة عن المماليك الأوروبية، ونظام الحكم فيها، وملوكها وأرضها وسكانها ونظمها الإدارية وجيوشها ومناخها... الخ.

2. العمري، مسالك الأبصار،164/3.

3. المصدر السابق:154/3–179 وانظر: العمري، التعريف بالمصطلح الشريف: 51–55.

- **التجار الأوروبيون من بنادقة وجنويين وفلورنسيين وإسبان ومسلمين وغيرهم:**

عمل سلاطين المماليك على استجلاب التجار من كل الملل والأجناس تنشيطاً لحركة التجارة التي أصبحت مصدراً هاماً من مصادر خزينتهم، ولذا فإنه من الطبيعي وجود أعداد كبيرة من الأجانب في أكثر الحواضر المملوكية كالقاهرة ودمشق والقدس، والإسكندرية وحلب وبيروت وعكا ويافا وطرابلس وعجلون وعمّان وغيرها من المدن.

فقد لاحظ الرحالة الأوروبي اليهودي عوبديا:" أن المرء يقابل في القاهرة أعداداً لا تحصى من الأجانب من كلّ أمة، ويتحدثون بكل لسان"[1]، وبدهي أن بعضهم قد تعلم العربية نتيجة لمخالطته أهلها وإقامته الطويلة بين ظهرانيهم، علاوة على أن بعض العائلات الإيطالية قد تخصصت في التجارة مع المشرق، منها: بيت الإخوة موروسيني Morosini الذين ذاع صيتهم في القرن الرابع عشرالميلادي/ الثامن الهجري، وكانوا يتجرون في بلاد الشرق وبخاصة في حلب، وكان لهم فرع هام يقيم في دمشق وبيروت[2]، كما أن بعضاً من الأسر البندقية اتخذت دمشق مركزاً لأعمالها التجارية مثل: أسرة كويريفي وأسرة باباريجو وأسرة واستورلادو[3].

ومن الإشارات الواضحة التي تدل على معرفة تجار الفرنج للّغة العربية، واستخدام الدولة المملوكية لهم أحياناً تراجمة يقومون بمهام دبلوماسية أو يترجمون بعض النصوص، أن السلطان المملوكي قام باعتقال جميع الفرنجة في دولته بعد غارة ملك قبرس وأعوانه من الفرنج على الإسكندرية في سنة 767هـ/1365م، وبقي تجار الفرنجة في الأسر حتى سنة 772هـ/1370م حتى قدمت سفن الفرنج للإسكندرية طلباً لافتكاكهم:" فلما سمعت أسارى الفرنج بقدومهم استغاثوا، فسمع

1. قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر:67.
2. ديل، البندقية:65.
3. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى:338/3.

السلطان استغاثتهم، فسئلوا عن ذلك، فقالوا: نريد أن يسافر منا اثنان إلى أرض الفرنج، يكلمون الباب* والملوك في إيقاع الصلح، والطاعة لمولانا السلطان، ونعد مولانا السلطان بأن كلبين منا قد هلكا إذا لم يرجعا، فرسم السلطان بذلك، فأرسلوا أرناط بن مرك البندقي وآخر معه"[1]. وقد غاب التاجران نحواً من عشرة أشهر، وعادا بصحبة رسل البنادقة والجنوية والروادسة والقبارسة، ثم جرت مفاوضات الصلح بين الطرفين سوى القبارسة والروادسة. ويرى جروسيه أن بعضاً من البنادقة الذين أتقنوا العربية كانوا يعملون تراجمة في مفاوضات المعاهدات التجارية بين المماليك والبنادقة[2].

ومن التجار التراجمة الذين تحدثت عنهم المصادر التاجر الإيطالي برتراندو دي ميجنانللي الذي ولد في إيطاليا سنة 772هـ/1370م، في أسرة من طبقة النبلاء، ثم غادر إيطاليا متجولاً في بلاد الشرق إلى أن استقر به المقام في دمشق التي أصبح بها من رجال المال والأعمال، وكما قال هو عن نفسه: وجدت هناك الثروة الوفيرة والشرف العظيم، لكن ذلك كان يقابله الكثير من الجهد والمخاطر الجمة.

وقد تعلم دي ميجنانللي خلال إقامته في دمشق اللغة العربية، وتمكّن من العمل بالترجمة التحريرية والشفوية للسلطان المملوكي الظاهر برقوق (ت801هـ/1398م) وذلك عند وصول يعقوب دي كروز Jacob de Croze سفيراً لدوق ميلان جيوفاني جاليزو Giovanni Galeazo .

وكان السفير قد حمل رسالة من الدوق يطلب بمقتضاها الإذن من السلطان برقوق لإصلاح الباسيليكا في بيت لحم بفلسطين، كما يطلب حماية الآباء في جبل صهيون.

---

* المقصود به " البابا "

1. النويري، الإلمام:6/404-405.

2. عفاف السيد صبره، العلاقات بين الشرق والغرب:252.

وقد ترجم دي ميجنانللي خطابات الدوق إلى اللغة العربية ورد السلطان عليها إلى اللغة اللاتينية[1].

وعلاوة على ذلك فإن بعضاً من كبار التجار الأعاجم قد قاموا بمهام السفارة بين دولة المماليك وغيرها من الدول، وقد أطلق عليهم اسم " الخواجكية "[2] وواحدهم " الخواجا " الذي كان من ألقابه في ديوان الإنشاء: " السَّفيريّ" الذي يفسره القلقشندي بقوله: " لسفارتهم بين الملوك وترددهم في الممالك لجلب المماليك والجواري ونحو ذلك، وهو منسوب إلى السفير: وهو الرسول والمصلح بين القوم نسبة مبالغة، ولم يستعمله الكتاب مجرداً عن الياء "[3]

ولا يخفى أن من يقوم بمهمام السفارة بين الملوك لابد له من معرفة لغة البلاد المرسل إليها، لما تحتاج إليه الدبلوماسية الناجحة من قدرة على أداء الرسالة، توسلاً لتحقيق الغرض المرجو منها، ولذلك خصّ السفراء والخواجكية بلقب:"ثقة الدّول"[4].

- **القناصل:**

لقد كان من النتائج الإيجابية لحركة التجارة النشطة بين دولة المماليك وجنوة والبندقية وفلورنسا وغيرها من المدن الإيطالية والممالك الأوروبية وجود عدد من القناصل الذين يرعون المصالح التجارية لهذه الدول، ولاشك أن اختيارهم كان بناءً على معرفتهم بأحوال الشرق العربي ولغته، الأمر الذي يحتم عليهم إقامة طويلة في الشرق واحتكاك وثيق بأهله.

---

1. أحمد عبد الكريم سليمان، تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة مع ترجمة مقال الكاتب اللاتيني دي ميجنانللي عن حياة تيمور لنك: القسم الثاني:3.
2. يقول القلقشندي، صبح الأعشى:13/6:" الخواجا من ألقاب أكابر التجار الأعاجم من الفرس ونحوهم وهو لفظ فارسي، ومعناه السيد، والخواجَكيُّ بزيادة كاف نسبة إلية للمبالغة، كأن الكاف تدخل في لغتهم مع ياء النسب" .
3. المصدر السابق:15/6.
4. المصدر السابق:42/6.

ولدينا من النصوص ما يثبت معرفة القناصل للعربية، وقدرتهم على نقل مراسيم السلطان التي يصدرها بشأن رعاياهم إلى لغاتهم، فقد حدث خلاف بين مسلمي الإسكندرية وتجار الفرنج بشأن أسرى المسلمين وذلك في سنة 769هـ/1367م، فما كان من نائب الإسكندرية إلا أن دعا قناصل الإفرنج المقيمين في المدينة، وقرأ عليهم كتاب السلطان المتضمن منع سائر الفرنج من السفر ما لم يردوا الأسرى:" فلما سمعت القناصلة والتجار ذلك كتبوا كتاباً بالخط الرومي ودخل به رجل من المسلمين البحر، وجعله بعقب رمح وغرز سنانه بقاع البحر ورجع إلى البر، فأتى قارب من مراكب الإفرنج أخذه ورجع به إلى المراكب، فلما قرأوه تيقّنوا أن أصحابهم مأسورون"[1].

- **رجال الدين المسيحي:**

نجم عن تسامح الدولة المملوكية تجاه النصارى ومنهم رجال الدين خاصة، وجود عدد كبير منهم في مختلف الأماكن المقدسة الموجودة على أرض الدولة المملوكية في القدس وبيت لحم وسيناء والناصرة وطور سيناء وغيرها من الأماكن المقدسة.

وتشير المصادر إلى أن رجال الدين المسيحي المقيمين على أرض الدولة المملوكية كانوا يمثلون مختلف الطوائف المسيحية من: روم وسريان وأرمن وكرج وأقباط وأحباش وفرنسيسكان[2]، وكانت لهم أديرتهم وكنائسهم التي يتمتعون فيها بأتم الحماية والرعاية من الدولة وفقاً لما تذكره وثائق هذه الطوائف الصادرة إليهم من ديوان الإنشاء المملوكي[3].

وفوق ذلك فإن الإسكندرية كانت مركزاً لكرسي بطرك اليعاقبة الذي يتبع مذهبه نصارى النوبة والحبشة[1].

---

1. النويري، الإلمام:5/192-193.

2. انظر:علي السيد حسن، القدس في العصر المملوكي:82-87.

3 .انظر: Risani; Documenti E. Firmani, PP. 6-170. E rnst ., D ie Mamlukischen Sultansurkunden des Sinai – Klosters, PP. 4-255.

1. انظر: صبح الأعشى:5/308. وانظر: . Suriano,Treatise On The Holy Land, P. 90

ولما كان رجال الدين المسيحي يمثلون مختلف الطوائف النصرانية فإنهم كانوا يعرفون لغاتها، ولذلك فإن الدولة المملوكية كانت تستعين بهم في أعمال الترجمة عند الحاجة، ويتضح ذلك من خلال:

أ-المشاركة والتصديق على الهدن بين المماليك والفرنج، فقد وقع المنصور قلاوون في سنة 689هـ/1290م هدنة مع الجنوية، وجاء رسل الفرنج إلى القاهرة لتوقيع الهدنة، فشهد عليها بطرس أسقف مصر وميخائيل الراهب من دير طور سيناء[2].

ب_تعريب الكتب الواردة إليهم ورفعها إلى السلطان المملوكي فيما إذا كانت متعلقة به[3].

ج- القيام بمهمة السفارة للسلطان المملوكي، وحمل رسائله إلى ملوك الغرب المسيحي، حيث استنجد صاحب الأندلس بالسلطان المملوكي في سنة 892هـ/1486م طالباً منه النصرة على الفرنج الذين أشرفوا على أخذ غرناطة، فبعث السلطان قايتباي إلى :" القسوس الذين بالقيامة التي بالقدس، بأن يرسلوا كتاباً على يد قسيس من أعيانهم إلى ملك الفرنج صاحب نابل، بأن يُكاتب صاحب قشتيلية، بأن يحلّ عن أهل الأندلس ويرحل عنهم، وإلا يشوش السلطان على أهل القيامة، ويقبض على أعيانهم، ويمنع جميع طوائف الفرنج من دخول القيامة..."[4].

- **اليهود:**

مما اتسمت به المجتمعات الإسلامية منذ عهد الرسول وفيما تلاه من العصور تسامحها مع اليهود، والقبول بوجودهم في إطار الدولة الإسلامية كأهل ذمة خلافاً لما كان عليه حال يهود من اضطهاد وتقتيل في المجتمعات الأوروبية.

2. ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور:166-169.

3. انظر: المصدر السابق: 172-173.

4. ابن إياس، بدائع الزهور: 3/244-245.

وانطلاقاً من قاعدة التسامح فإنه سمح لليهود بممارسة التجارة وجوب الآفاق بحثاً عن الثراء مما مكنهم من معرفة عدد من اللغات التي يتواصلون بها مع شعوب الأرض المختلفة، كما سمح لهم بالإقامة للعبادة في الأماكن المقدسة[1].

وبناءً على ما تقدم فإن عدداً منهم قد برعوا في الترجمة وإتقان اللغات المختلفة، كما برعوا في التجارة والطب والصرافة وغيرها من المهن المهمة آنذاك.

فقد ذكر الرحالة اليهودي ميشولام أن مترجم السلطان المملوكي كان يهودياً من أصل أسباني، وكان عارفاً بسبع لغات هي العربية والإيطالية والتركية والألمانية والفرنسية إلى جانب اللغة العبرية[2].

ويحدثنا الرحالة الأوروبي بيرو طافور الذي شرع في رحلته إلى الشرق سنة 839هـ/1435م- وكان، تاجراً وسفيراً أرسل لبلاط السلطان المملوكي- أن ترجمان السلطان من أصل يهودي لكنه أسلك فيما بعد، يقول: " فتلقاني المترجم بالترحاب العظيم وأنزلني في داره، فبقيت به يومين قبل أن أتمكن من رؤية السلطان، وأخذ المترجم طوال هذه الفترة في محادثتي، فسألني الكثير عن نفسي، ولما عرف مني أنني قشتالي الأصل، أشبيلي المولد، امتلأت نفسه غبطة لسماعه هذا النبأ، فقد ولد هو الآخر بها، ودرج طفلاً على ترابها، إلا أنه حمل صغيراً إلى بيت المقدس مع أبيه وكان يهودياً، لكنه أسلم حين مات أبوه، وكان اسمه في بداية الأمر "حايم" أما الآن فيدعى "صايم" وقد أراد أن يعرف من أكون ومن أين جئت؟ فلم أكتم عنه شيئا من خبري لأنتفع بخدماته ونصحائه"[1].

وجاء في إحدى الوثائق المؤرخة في 29من صفر 826هـ/11 من فبراير 1423م، وذكر لخمسة من التراجمة المسلمين المعتمدين لدى الدولة المملوكية

---

1. انظر: F.f Suriano Treatise On The Holy Land . (Jerusalem, 1949), PP. 101-102.
2. قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر:64.
1. طافور، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي:64-65.

وهم: شمس الدين محمد بن العادل، وتقي الدين محمد بن الأسيوطي وشمس الدين محمد بن عمر ومحمد بن حمزة ومحمد بن علي بن كندك، ومترجم يهودي اسمه مردوخ بن شموال[2] .

فهرست المصادر والمراجع

أحمد عبد الكريم سليمان:

2. صبحي لبيب،"الفندق ظاهرة سياسية، اقتصادية، قانونية:296 ضمن كتاب: مصر وعالم البحر المتوسط. ويبدو أن عائلات يهودية قد تخصصت في موضوع الترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية من قبل العصر المملوكي ومن بعده.ففي ملخص لدراسة بعنوان"المترجمون إلى اللغة العربية في وهران في القرن 16" وهي من إعداد شانتال دي لافيرون من المركز الوطني للبحث العلمي بباريس مانصه: "عند البحث في الأرشيف العام بسيمنكا (إسبانيا) حول موضوع وهران أثناء الاحتلال الإسباني لاحظنا غياب وثائق الإدارة الإسبانية فيما بين 1652–1668 إلا أننا عثرنا على هذه الوثائق في لندن وجوناف. وتبين لنا أن أغلبها تتناول العائلات اليهودية الرئيسية في وهران والتي من بينها عائلات تتمتع بامتياز المناصب الرسمية للمترجمين إلى العربية ومن بين هذه العائلات توجد عائلة كانسينو، وقد مكّنتنا وثائق المتحف البريطاني والمكتبة الجامعية بجوناف من تتبع حياة وسير بعض أعضائها المترجمين إلى العربية لدى حكام وهران. وبالإضافة إلى كانسينو توجد عائلات زابورتاس والألبو التي تعتبر من ضمن العائلات السبعة التي سمح لها الأسبان بالإقامة بوهران. إن الوثائق المذكورة أعلاه تتحدث عنها في عدة مناسبات وتشير إلى أن بعض أعضائها كانوا مترجمين إلى العربية"، انظر: (المجلة التاريخية المغربية، السنة 17، العدد59–60، سنة 1990).

- **تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة**.ط1، دار النهضة العربية، القاهرة،1985م.

ابن إياس، محمد بن أحمد(ت930هـ/1553م).

- **بدائع الزهور في وقائع الدهور**. تحقيق: محمد مصطفى، ط3، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1984.

بروكلمان، كارل:

- **تاريخ الأدب العربي، القسم السادس (10-11)**. نقله إلى العربية: حسن محمود إسماعيل، الهيئة المصرية، القاهرة،1995م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ/ 1469م).

- **المنهل الصافي والمستوفى على الوافي(1-6)**. تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وآخرون، ط1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1956-1990م.

- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. وزارة الثقافة، القاهرة، 1963-1972م.

ابن حبيب، حسن بن عمر بن الحسين (ت779هـ/1377م):

- **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**. تحقيق: محمد محمد أمين، ط1، مطبعة دار الكتب، القاهرة،1976-1986م.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (ت852هـ/1448م):

- **إنباء الغمر بأنباء أبناء العمر**. تحقيق: حسن حبشي، ط1، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

- **الـدرر الكامنــة فــي أعيــان المائــة الثامنــة.** تحقيـق: محمـد سـيد جـاد الحـق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1966م.

حسين مؤنس:

- "**سفارة بدرو مارتيرد أنجلاريا**"، ضمن كتاب: أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1970م.

الخالدي العمري، محمد بن لطف الله (تاق9هـ/15م):

- **المقصـد الرفيـع المنشـا الهـادي إلـى ديـوان الإنشـا.** مخطـوط المكتبـة الوطنيـة بباريس رقم (4439).

الدروبي، سمير:

-" **حركة التعريب في ديوان الإنشاء المملوكي**"، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع62، ص11-73، 1423هـ/ 2002ن.

- "**منهجية المسلمين في الترجمة في العصر العباسي**"، مجلة ترجمان، جامعة عبد المالك السعدي، مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، ع1، مجلد8، سنة 1999م.

ديل، شارل:

- **البندقية جمهورية أرستقراطية. ترجمة:** أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر، دار المعارف، القاهرة،1949م.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت771هـ/1369م):

- **معيد النعم ومبيد النقم.**ط1، دار الحداثة، بيروت،1983م.

السخاوي، شمس الدين عبد الرحمن (ت902هـ/1496م):

- **الذيل على رفع الإصر**. تحقيق: جودة هلال ومحمد محمود صبح، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بلا تاريخ.

- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**. مكتبة القدسي، القاهرة، 1355هـ.

سعيد عبد الفتاح عاشور:

-**مصر والشام في عصر الإيوبيين والمماليك**. دار النهضة، بيروت، بلا تاريخ.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ/1505م):

-**بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1964م.

ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم(ت684هـ/1280م).

– **تاريخ الملك الظاهر**، تحقيق: أحمد حطيط، فرانز شتاينر بفيسبادن، 1983م.

الشيباني، أحمد بن أبي الفتح (ت702هـ/ 1302م)

– **رسالة رصف الفريد في وصف البريد**، دراسة وتحقيق: سمير الدروبي، دار البشير، عمان، 2002م.

صبحي لبيب:

- " **الفندق: ظاهرة سياسية، اقتصادية، قانونية**". ضمن كتاب: مصر وعالم البحر المتوسط، إعداد وتقديم: رؤوف عباس، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة –باريس، 1986م.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(673هـ/1367م):

- **أعيان العصر وأعوان النصر**. مكتبة السليمانية، مجموعة عاطف أفندي رقم (1809)، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورات، 1990م.

- **الوافي بالوفيات**. تحقيق: هلموت ريتر وآخرون، فرانز شتاينر بفيسبادن، 1961-1996.

الصيرفي، علي بن داود (ت879هـ/1474م):

- **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان**. تحقيق:حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1970-1973م.

طافور:

- **رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي**. ترجمة وتقديم:حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة،1968م.

ابن عبد الظاهر، محيي الدين عبدالله (ت692هـ/1292م):

- **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**. تحقيق: مراد كامل، ط1، وزارة الثقافة والإرشاد، القاهرة،1961م.

- **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**. تحقيق:عبد العزيز الخويطر،ط1، الرياض،1976م.

عبد المنعم ماجد:

- **نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر**.ط2، مكتبة الأنجلو المصرية،1979م.

عفاف صبرة:

- **العلاقات بين الشرق والغرب**.دار النهضة العربية، القاهرة، 1983م.

العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت749هـ/1349م):

- **التعريف بالمصطلح الشريف**.دراسة وتحقيق:سمير الدروبي، جامعة مؤته، الأردن، 1992م.

- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**. مخطوط أحمد الثالث، طوبقابوسراي، رقم (2/2797) و (3/2797).

العيني، بدر الدين محمود (ت849هـ/1451م):

- **السيف المهند في سيرة الملك المؤيد**. تحقيق: فهيم محمد شلتوت. دار الكتاب العربي، القاهرة، 1966-1967م.

- **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (حوادث وتراجم 815هـ-824هـ)**. تحقيق: عبد الرازق القرموط،ط1، مطبعة علاء، القاهرة، 1985م.

- **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان** (حوادث وتراجم 824هـ-850هـ). تحقيق: عبد الرازق القرموط، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1989م.

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت807هـ/1404م):

- **تاريخ ابن الفرات**. عني بتحرير نصه: قسطنطين زريق، تاريخ ومكان النشر غير مذكورين.

قاسم عبده قاسم:

- **اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني**،ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة-باريس،1987م.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت821هم1418م):

- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. مصورة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة عن المطبعة الأميرية.بلا تاريخ.

المقريزي، أحمد بن علي (ت845هـ/1441م):

- **إغاثة الأمة بكشف الغمة. نشر**: محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال،ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1940م.

- درر **العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة**. تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، 1995م.

- **السلوك لمعرفة دول الملوك**. تصحيح: محمد مصطفى زيادة،ط2، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،1956م.

- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية**. طبعة جديدة بالأوفست، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.

النويري، محمد بن القاسم (ت775هـ/1373م):

- **الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية**. تحقيق: عزيز سوريال عطية،ط1، حيدر آباد الدكن، الهند،1973م.

هايد،ف:

- **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى**. عربه عن الترجمة الفرنسية: أحمد محمد رضا، ط1، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1985-1994م.

ابن واصل الحموي، جمال الدين محمد بن سالم(ت697هـ/1217م):

- **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**. تحقيق: جمال الدين الشيال وحسن محمد ربيع، الهيئة المصرية العامة، القاهرة،1953-1977م.

اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت759هـ/1358م):

- **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**. تحقيق ودراسة: أحمد حطيط/ ط1، عالم الكتب، بيروت، 1986م.